كلية : الآداب

القسم او الفرع : اللغة العربية

المرحلة: الثالثة

أستاذ المادة : أ.م.د. نهاد فخري محمود

اسم المادة بالغة العربية : النقد القديم

اسم المادة باللغة الإنكليزية : Old Criticism

اسم المحاضرة الأولى باللغة العربية: منهج كتاب البديع لابن المعتز

اسم المحاضرة الأولى باللغة الإنكليزية: The method of «Al-Bady'a» by Ibn Al-Mu'taz

مقرر الفصل الأول

منهج كتاب البديع لابن المعتز:

قسم ابن المعتز انواع البديع في أول كتابه الى خمسة أبواب هي: الاستعارة والتجنيس والمطابقة ورد إعجاز الكلام على ما تقدَّمها والباب الخامس هو المذهب الكلامي.

ومن ذلك قوله: " من الكلام البديع قول الله تعالى: (**وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ**)، ومن الشعر البديع قوله: (من البسيط)

والصبُحُ بالكوكب الدُّري منحورُ

وإنَّما هو استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد عرف بها مثل أم الكتاب ومثل (جناح الذل) ومثل قول القائل (الفكرة مخ العمل) فلو كان قال لب العمل لم يكن بديعاً، ومن البديع أيضاً التجنيس والمطابقة، وقد سبق إليهما المتقدمون ولم يبتكرها المحدثون " .

ومثَّل للأقسام الخمسة فبدأ بالاستعارة فمثَّل لها بقول الشاعر:

وغداة ريح قد كشفت وقرةٍ إذا أصبحت بيد الشَّمال زمامها

ومنها:

فضربت الشتاء في أخدعيه ضربةً غادرته عودًا ركوبـــــــا

وقول الكميت:

ولما رأيت الدهرَ يقلِبُ ظهره ... على بطنه فعل الممعّك بالرّمل

ومن التجنيس، قول محمد بن كُناسة:

وسميته يحيى ليحيا ولم يكنْ ... إلى ردَ أمرٍ الله فيهِ سبيلُ

وقول أبي نواس:

عباسُ عبّاسُ إذا احتدمَ الوغَى ... والفضل فضلٌ والرّبيع ربيعُ

ومن المطابقة، قوله تعالى:(**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ**)، وقوله (صلى الله عليه وسلم):(**إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع**).

رد الأعجاز على الصدور، وهو رد أعجاز الكلام على ما تقدمها، ومنه قول الأُقيشر:

سَرِيعٌ إِلَى ابْنِ العَمِّ يَشْتُمُ عِرْضَهُ ... وَلَيْسَ إِلَى داعِي النَّدَى بِسَرِيع

اما المذهب الكلامي، فقال فيه ابن المعتز: وهذا باب ما أعلم أني وجدت في القرآن منه شيئاً، وهو ينسب إلى التكلف – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً– وقال أبو الدرداء: إن أخوف ما أخاف عليكم أن يقال: علمت فماذا عملت.

وقال الفرزدق:

لكل امرئ نفسان نفس كريمةٌ ... وأخرى يعصيها الفتى ويطيعها

ونفسك من نفسيك تشفع للندى ... إذا قل من أحرارهن شفيعها

وليس من شك أن ابن المعتز قد اقتصر في تأليفه على أبواب خمسة من البديع، وان كان كتابه قد انتهى، ولكنك تُفاجأ بعد هذه الخاتمة التي ذكرها قائلاً:(فمن أحبّ أن يقتدي بها ويقتصر بالبديع على تلك الخمسة فليفعل ومن أضاف من هذه المحاسن أو غيرها شيئاً إلى البديع ولم يأت غير رأينا،

فله اختياره)، وسرد أبواباً جديدة في البديع عددها ثلاثة عشر باباً هي: الالتفات، الاعتراض، الرجوع، حسن الخروج، تأكيد المدح بما يشبه الذم، تجاهل العارف، الهزل يراد به الجد، حسن التضمين، التعريض والكناية والافراط في الصفة، وحسن التشبيه، ولزوم ما لا يلزم، وأخيراً حسن الابتداء .

وتبدو هذه الأبواب وكأنها جزء ثاني للكتاب، الا أنها إذا قورنت بالأبواب الخمسة الأولى وجدت قصيرة عدا حسن التشبيه .

ومما اتخذه منهجاً في سرد الشواهد فإنه يبدأ بذكر شواهد القران الكريم والأحاديث النبوية، فكلام الصحابة ثم شواهد الشعر العربي، ومما ذكر في باب الاستعارة قوله تعالى:(**وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ...)** قوله تعالى **(وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا)**

ومن الشعر القديم قول امرئ القيس:

وليلٍ كموج البحر أرخى سدوله علـــــيَّ بـــــأنواع الهمـــــوم ليبتلـــــي

فقلـــت لـــه لمـــا تمطـــى بصـــلبه وأردف أعجـــــــازاً ونـــــــاء بكلكـــــــل

ويذكر في الباب الثاني من البديع التجنيس والمطابقة، والتجنيس عنده: أن تأتي الكلمة تجانس الأخرى في بيت شعر وكلام ومجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها على السبيل الذي ألَّف الأصمعي كتاب (الأجناس) عليها.

الجناس عنده على نوعين:-

١-أن تكون الكلمة تجانس أخرى في تأليف حروفها ومعناها، ومشتق منها قول الشاعر: (ويوم خَلِجْت[١] على الخليج نُفُوسُهم)

٢-ان يكون تجانسها في تأليف الحروف دون المعنى مثل قول الشاعر:-

(إن لومَ العاشق اللُّوم)

ويستمر ابن المعتز في سرد الأبواب حتى يصل الى الباب الخامس وهو المذهب الكلامي، فلم يتمثَّل فيه بشواهد من القرآن الكريم والحديث الشريف، وانما اكتفى بذكر ثلاثة أمثلة في الشعر والنثر، وذهب ابن المعتز في فاتحة الباب قائلاً:(وهو مذهب سمّاه أبو عمرو الجاحظ المذهب الكلامي، وهذا باب ما أعلم أني وجدت في القرآن منه شيئاً وهو ينسب الى التكلف، تعالى الله من ذلك علواً كبيراً) فهو مسوغ كافٍ لتنزيه القران الكريم والحديث الشريف؛ لأنه منسوب الى التكلف .

ومن الملاحظ على ايراده الشواهد أنه كان يستعين برأي أحد اللغويين في أصل دلالة الكلمة المستعارة، واكتفى بشروحه وتعليقاته البسيطة على بعض الشواهد، ففي باب حسن التشبيه يذكر قول امرئ القيس:

كأن قلوبَ الطَّير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي

فقد ذكر أن امرأ القيس إمام الشعراء، وهذا الوصف قد سبقه قبله الأصمعي في فحولة الشعراء قائلاً:(أولهم في الجودة امرؤ القيس له الحظوة والسبق، وكلهم أخذوا من قوله واتبعوا مذهبه).

أما في باب الالتفات، فقد حدد مفهوم الالتفات، واستشهد له بشواهد من القرآن الكريم، كقوله تعالى:(**حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ...**)

واستشهد بالشعر العربي، فمن ذلك قول جرير:

طـرب الحمـامُ بـذي الأراكِ فشـاقني لا زالــتَ فــي غلــلٍ وأيــكٍ ناضــرِ

([١]) خلجت: أي جذبت، والخليج بحر صغير يجذب الماء من بحر كبير، فهاتان اللفظتان متفقتان في الصيغة واشتقاق المعنى .

ونجده أيضاً يتحدث في باب تأكيد المدح بما يُشبه الذَّم، كقول النابغة:

ولا عيــب فــيهم غيــر أنَّ ســيوفهم بهــنَّ فلــولُ مــن قــراعِ الكتائــبِ

وقول الجعدي:

فتــى كملــت أخلاقُــه غيــر أنَّــه جــوادٌ فمــا يبقــى مــن المــالِ باقيــا

واذا كان موقف ابن المعتز في كتاب البديع يمثل مرحلة نقدية مهمة فإنَّ تتبع آراء ابن المعتز فيه يدلنا على فكر متذوق للأدب عارف بمواطن الإجادة والإحسان، ولما كان قصده تصنيف فنون البديع وإدراج شواهده الجميلة فانه لم يأخذه التعصب لهذه الظاهرة الفنية، فنبَّه الى وجود شواهد لم يحسن أصحابها استعمال البديع وهكذا نجده منذ البداية منبِّها الى قضية عرفها خصوم أبي تمام وأنصاره وهي إفراطه في الصنعة الفكرية واللفظية مما عد خروجها على عمود الشعر العربي فيقول:" ثم إن حبيب بن أوس الطائي من بعدهم شُغفَ به حتى غلب عليه وتفرغ فيه واكثر منه فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض وتلك عقبى الإفراط وثمرة الإسراف وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين في القصيدة وربما قرئت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع وكان يُستحسنُ ذلك منهم إذا اتى نادراً ويزداد حظوة بين الكلام المرسل وقد كان بعض العلماء يشبه الطائي في البديع بصالح بن عبدالقدوس في الأمثال ويقول لو ان صالحاً نثر أمثاله في شعره وجعل بينها فصولاً من كلامه لسبق أهل زمانه وغلب على مدّ ميدانه وهذا اعدل كلام سمعته في هذا المعنى "

لقد كانت آراء ابن المعتز النقدية منصبة غالبا على أهم قضية شغلت بال النقاد والشعراء المحدثين وهي ما عرف عن الشعراء العباسيين من عنايتهم بلغتهم الشعرية وتأنقهم في اختيار ألفاظهم، وإلباسها حلل البديع من جناس وطباق واستعارة، وقد كان لشاعرية ابن المعتز تأثير في تبني هذه القصية فقد أدركها بذوقه الرفيع في أشعار معاصريه .